

الحركة الإصلاحية في الجزائر ودورها في النهوض بالمرأة وتعليمها

أ/ أمينة بشي
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الجزائر

نشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر وأهدافها العامة.

لقد كان لميلاد فكرة الإصلاح التي بدأت شمسها تشرق على الجزائر في مطلع هذا القرن، الأثر البالغ في حياة الفرد الجزائري الذي كان غارقا في بحر التخلف والجهل، تحت حكم استعمار جائر وقد كان لظهور هذه الفكرة قبل¹ إنهاء وغداة الحرب العالمية الأولى أن قلبت في هذا الوطن المعطيات الدينية التقليدية الجامدة التي كان يمثلها رجال الطريقة المنحرفة، وقد أقر عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر نفسه بهذه الحقيقة في قوله: « قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطريقة...»² وقد اتخذ المصلحون من القرآن الكريم والسنة الصحيحة منطلقا لدعوتهم الإصلاحية، وكان هدفهم العودة بالجزائريين إلى الدين الصحيح سلوكا وعقيدة، وكان هذا التصور بعد أن نضجت الرؤية وتأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي من سنة 1931 بقيادة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، وقد كان على عاتق هذه الجمعية الإصلاحية، إخراج الأمة مما كانت فيه إلى حياة جديدة، وقد أوضح القانون الأساسي³ لهذه الجمعية أن هدفها هو الإصلاح الديني بمعناه الشامل، كما أقر الفصل الثالث منه عدم خوضها في المسائل السياسية، لكن الذي يتفحص سجل هذه الجمعية وقانونها الأساسي بعمق، يدرك ولا يشك أن فلسفة الإصلاح لدى هذه الجماعة كانت رؤية شاملة لكل نواحي الحياة التي تخص الفرد الجزائري وكما يقول الكولونيل بيبدر «BEIBEDER» متحدثا عن دور هذه الجمعية وأثرها، قائلا

1 - ينظر :

2 - ينظر المرجع نفسه.

3 - ينظر

عنها»... حتى وهي في بداية طريقها لم يكن ليشك ابن باديس في دورها السياسي الذي ستضطلع به في المستقبل...» وبعد سنوات قليلة من تأسيسها إلى هناك...¹.

وهذا محمد البشير الإبراهيمي نائب الرئيس، يوضح لنا مجالا من نشاط هذه الجمعية وأهدافها حيث يقول: «من الغلط أن يقال أن جمعية العلماء، جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس... والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم تكوينها للإصلاح الديني والاجتماعي وكل ذلك يسعه مدلولها، وموضوعها، وقانونها، وإن الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي...» وقد واجهت هذه الجمعية صعوبات جمة في طريقها وعلى حد تعبير الإبراهيمي فهي التي جمعت الشتات وأحييت الأموات، وجددت المبادئ، كما كان عليها أيضا أن تهدم، وتبني، وتربي، وتعلم في آن واحد، وأن تواجه عدة جبهات وتحارب الإستعمار، والتدجيل في الدين، والضلال في العقائد، كل ذلك مع قلة الأنصار وقلة المال²... وقد جعلت من صحفها³، وكتابها⁴ وشعرائها وفدا قويا، ومنبرا لإيصال أفكارها إلى الناس.

كما أوضحت منذ البداية، هذه الجمعية الإصلاحية عن مواقفها إزاء كل القضايا التي تعني المجتمع، والمشاكل⁵ التي تعاني منها الجزائر آنذاك، وقد دعت إلى تأسيس جمعيات خيرية لمساعدة المحتاجين والفقراء، وانتشالهم من أيدي المبشرين وجمعياتهم وقد تصدى لهم الكتاب والشعراء بإبراز أهدافهم وخبائهم عبر قصائد، ومقالات عديدة كما تصدت جمعية الإصلاح لمخططات الإستعمار الثقافي، وهذا بإنشاء النوادي الثقافية في العاصمة وغيرها لاستقطاب الشباب وتربيته على الفضائل، ومكارم الأخلاق كما حصلت من الجمعيات الأدبية، التي تفرعت عن الجمعيات الثقافية منبرا لإبراز مواهب هؤلاء الشباب الفنية والأدبية، ولحمايتهم من الانحرافات الاجتماعية والأخلاقية التي انتشرت في المجتمع بفعل البطالة والفقر ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كل هذه الانحرافات الاجتماعية قد تعرض لها شعراء الإصلاح⁶ إدراكا

1 - من جملة النصوص الشعرية التي تعرضت لمشاكل الجزائر قصيدة محمد الصالح خيشاش المعنونة: «مشاكل الجزائر» التي نشرت بجريدة النجاح عدد 1965، (7، 3، 1937) وقصيدة أخرى لنفس الشاعر المعنونة «أين الطبيب» نشرت في جريدة النجاح.

2 - ينظر: رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفة، وجهود، في التربية والتعليم.

3 - ينظر: د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج: 1، ص 237 حتى 244.

4 - ينظر سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» دار الكتب الجزائر ط 1922 ص 125.

5 - رمضان حمود، «بذور الحياة» طبعة تونس 1928، ص 69.

6 - ينظر مجلة التلميذ، العدد التاسع، والعاشر من سنة 1932.

ووعيا منهم بدور رسالتهم في المجتمع، ولم يكتفوا بعرض هذه المشاكل الاجتماعية في إنتاجهم فحسب بل حاولوا إعطاء بعض الحلول الممكنة لزوال مثل هذه الظواهر أو التخفيف من حدتها.

وهكذا نلاحظ أن غاية «جمعية العلماء» هي محاربة الآفات الاجتماعية من جهة، كالفقر والجهل وانتشار الخمر والميسر والبطالة، وكل ما ينهي عنه الشرع أو يحرمه، ومن جهة أخرى، الدعوة إلى العودة إلى الدين الصحيح، وإحياء سيرة السلف الصالح، وإعادة الاعتبار لكل ما يمت بصلة إلى التاريخ الإسلامي المجيد وإلى تراثه، وإذا تصفحنا إنتاج كتاب وشعراء جمعية الإصلاح الذي نشر على صدر صفحتها العديدة والمختلفة، فإننا نجد أن هذا الإنتاج الأدبي والشعري كان يصب في هذا المعين، ويخدم هذه الأغراض والأهداف كلها، وقد كشف هذا الإنتاج الشعري لشعراء الإصلاح ومنذ البداية عن أدواء المجتمع التي تفتشت فيه، وصور الواقع المزري الذي كان يعيشه الجزائريون بفعل سياسة المستعمر الخبيثة، وفي هذا الإطار يعطي لنا الشاعر أحمد بن الحاج² يحيي سيرة من واقع هذا المجتمع حيث يقول داعيا إلى النهوض بالامة الجزائرية:

عجبا هلا تصديتم لمحق * * * جذور المارقين السفهاء
وعلمتم بالذي تتلونونه * * * في كتاب الله صباحا ومساء
فالزنى فاش، وخمر رائجة * * * وقمار في جهار وخفاء
وشباب ضائع يأوي إلى * * * موضع اللهو إلى دروع البغاء
وأباص ضائعات مرض * * * بلاء فقر وجوع وعراء
نكباته ويلاتها جملة * * * ووزايا تدع الطرد هباء
كل قلب مؤمن في حسرة * * * ألف يقطر حزنا بالدماء³

1 - هناك قصائد عديدة في الدعوة إلى التعليم في الثلاثينيات، لا يمكن حصرها، والملاحظ عليها أنها ضعيفة فنيا من حيث الأسلوب واللغة الشعرية نذكر منها: «العلم نور» لمحمد العلمي، في جريدة البلاغ الجزائري، عدد 7/21/15. 3. 1930 وقصيدة أحمد بن الحاج يحي، بعنوان «إلى المدارس هبوا بني وطني» في جريدة النور عدد 29، 12 أبريل 1932، وقصيدة ابن بشير الرابعي بعنوان: «ألا فأبنوا صرح المدارس بينينا» في جريدة النجاح عدد 1549، 16 أبريل 1934، وقصيدة علي الرزواق بعنوان «يا قوم لا تتركوا أبناؤكم هملا» في مجلة الشهاب ج: 7م: 10 (14 جوان 1934) ص315.

2 - من جملتهم نجد الشاعر زهير الواهري، في قصيدته «صورة مجتمع الجزائر»، في مجلة الشهاب ج: 5م: 6. جوان 1930 ص307.

شعب الجزائر مسلم وتضلّه * * * بدع تصد عن الهدى بمريءاء
والشاعر محمد الصالح خبشاش في قصيدته «المرأة الجزائرية والحجاب» في شعراء الجزائر في العصر الحاضر، للهادي السنوسي، ج: 2، ص96.

ومحمد العيد في «استوح شعرك» الديوان، ص149.

3 - محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، «المرأة الجزائرية والحجاب» ج: 2، ص 96.

إلى جانب تصوير الشعر الإصلاحي لمشاكل المجتمع الجزائري، ظهرت - دعوة حارة - أيضا - وهذا في إطار نشاط الجمعية دائما - هذه الدعوة الإصلاحية التي ترمي إلى النهوض بالمرأة الجزائرية وإخراجها من قهر الجهل، والتخلف، وقد تجلّت هذه الدعوة على ألسنة الشعراء والكتاب الإصلاحيين الذين أدركوا مكانة المرأة، ودورها الفعّال في المجتمع، المتمثّل في تنشئة الجيل، وتربيته للمستقبل. فراحوا يدعون لتعليمها ويؤكدون على المنافع التي سيجنيها المجتمع من وراء ذلك، وهذا مصطفى حلوش في خطبته راح يصف المرأة الجزائرية قائلاً... «ومن المؤسف المحزن أن تكون الأم، هي المدرسة الأولى جاهلة، وناقصة لا تكمل، وآسف من ذلك، وأحزن أن يضاف إلى جهلها، ونقصانها جهل الرجل ونقصانه فتبقى مدرسة الأسرة عاطلة، لا من ناحية الرجل، ولا من ناحية المرأة... لهذا إن أردنا حياة هنيئة وسعادة راضية يجب أن يكون الدين أساسا للتعليم وأن يشمل الرجل والمرأة على السواء، وأن يكون التطبيق فيه أكبر من النظر...»¹، وإذا تأملنا جيدا فحوى هذه الخطبة الإصلاحية فإننا ندرك مدى أهمية المرأة المتعلّمة في المجتمع أو كما لقبها الكاتب «بمدرسة الأسرة» وأهمية تعليمها يكمن أساسا في طبيعة ونوعية التكوين الذي ستتلقاه والذي يجب أن يبنى على فلسفة أو راية خاصة، ووفق منهاج² دراسي خاص أيضا، وهو أعطى له أهمية متميزة حين أنشأ جمعية التربية والتعليم الإسلامية في سنة 1930م، وقد نص مكتب الجمعية صراحة على أن تعليم الفتيات مجاني وإن كنّ قادرات أو غير قادرات على دفع المصاريف وذلك تشجيعا لهنّ على الإقبال على الدراسة والمواظبة عليها، كي تتكون منهن المرأة المسلمة المتعلمة³ وأشاد بدور الجمعية في النهوض بالمرأة وتعليمها بقول ابن باديس:

«من دواعي الإعجاب بهذه الجمعية أنها عرفت غايتها لتعليم الفتاة الجزائرية تعليما دينيا صحيحا يتفق، وما تصبو إليه من اقتران ذلك التعليم بالحسنة والفضيلة، والعفة والصيانة...»⁴.

ونستنتج من هذا المقال، أن ابن باديس وضع قضية تعليم المرأة الجزائرية ضمن سياسة التخطيط الشامل لمحاربة الإستعمار وهذا إدراكا منه لما تمثله هذه المرأة من رمز للمستقبل، وللأجيال القادمة، فهي

1 - الطاهر بوشوشي «بنت الجزائر»، جريدة المرصاد، عدد 53، (14 جويلية 1933).

2 - محمد الهادي السنوسي، «ملاحي الأطفال»، جريدة النجاح، العدد 694، (25 جانفي 1929).

3 - من جملة هذه القصائد التي يدعو بل يحث فيها على تعليم المرأة قصيدته «استوح شعرك» ينظر الديوان ص 145 إلى 149، وغيرها من القصائد العديدة، تنتظر في ديوان محمد العيد.

4 - من جملة هذه القصائد التي يدعو بل يحث فيها على تعليم المرأة قصيدته «استوح شعرك» ينظر الديوان ص 145 إلى 149، وغيرها من القصائد العديدة، تنتظر في ديوان محمد العيد.

رمز ومصدر روح الشخصية الوطنية التي يجب المحافظة عليها حتى لا يستغلها الإستعمار لصالحه، أو يحاول مسح مقومات شخصيتها ولتحقيق هذا الهدف، فأول شيء يجب فعله كما يقول ابن باديس هو : « إذا أردتم إصلاحها الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها ... وتعليم البنات تعليما يناسب خلقهن، ودينهن، وقرسيتهن، فالجاهلة التي تلد أبناء لأمة يعرفونها، مثل أمهاتنا - عليهن الرحمة - خير من العاملة التي تلد للجزائريين أبناء لا يعرفونها... ويوم نسلك هذه الطريق من تعليم المرأة والطريق السابق في تعليم الرجل سلوكا جديدا نكون بإذن الله، قد نهضنا بها نهضة صحيحة...»¹ ومن هذا المقال نستنتج أن ابن باديس يرى في عدم تعليم المرأة مشكلة اجتماعية تعني الجنسين معا، الرجل والمرأة كما أن هذه المشكلة تهم المجتمع كله، الذي يعاني من نفس عوامل الانحطاط والتخلف، وهكذا نلاحظ بأن جمعية الإصلاح في الجزائر منذ ظهورها، وهي تحاول جاهدة، بكل ما توفرت عليه من وسائل وإن كانت محدودة تهيئة الطريق والمناخ النفسي والاجتماعي والثقافي للنهوض بالمرأة الجزائرية رغم كل الصعوبات التي اعترضتها لتحقيق هذا الهدف من مستعمر صليبي حقوق، وطرقى جاهل مستغل، وشاب متفرج منحل، وموظف ديني خائن إلا أن هذه الصعوبات لم تثن من عزيمتها في المضي قدما لبعث صحو أو نهضة جديدة في المجتمع الجزائري متعددة الجوانب وكانت المرأة الجزائرية - طبعا - تمثل جانبا من هذه الجوانب التي اهتمت بها وشغلت بال الفكر الإصلاحي في الجزائر ومن القضايا التي عالجها شعرا ونثرا في إنتاجها الفكري والأدبي.

02 - دور الحركة في تعليم المرأة والنهوض بها أقوال شعرائها ومفكرها:

لقد أولت جمعية الإصلاح في الجزائر بقيادة ابن باديس، عناية خاصة لقضية تعليم المرأة الجزائرية التي عاشت في محيط يسوده الجهل، والظلام، واستبداد المستعمر، وقد تصدى رجال الحركة الإصلاحية كتابا²، وشعراء لطرح هذه القضية وهذا بالبحث عن أسبابها، والحلول الممكنة لإخراج المرأة الجزائرية من دائرة التخلف والجهل، وهذا بوضع برنامج عمل جاد، يحدد فيه كيفية القيام بهذه العملية التربوية الواجبة للابن والبنات معا³، وكان هدفها على حد قول رمضان حمود إذ قال : « إن أول حجرة تضعها الأمة في بناء

1 - محمد العيد، الديوان، ص 179.

2 - ينظر سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قضية « ماذا ينبغي للبنات أن تتعلم؟

3 - مجلة الشهاب، المرأة المسلمة الجزائرية، ج: 10، م: 5 (نوفمبر 1929) ص 14.

حريتها هو تهذيب المرأة، وتثقيفها لأنها التربة التي ينبت منها الشعب كله..¹، كما نوقشت قضية وجوب تعليم المرأة الجزائرية في المؤتمر الثاني المنعقد بالجزائر بإشراف طلبة شمال إفريقيا سنة 1932 إذ أدرج نقاطا في برنامجه² لمعالجة هذه المشكلة الخاصة بالمرأة في المغرب العربي عامة.

وإذا تفحصنا بعض النصوص الشعرية³، فإننا نجد أنّ شعراء الإصلاح قد أدركوا مدى خطورة هذه القضية، وآثارها في مستقبل الأمة والمجتمع ككل، إذ أبدوا اهتماما بالغا، وهذا بالدعوة إلى تعليم المرأة والبنات على وجه الخصوص تعليما إسلاميا صحيحا، يقيها من موجات التفرنس، ويحفظ كيائها ومقومات شخصيتها الجزائرية المسلمة من الذوبان في الغير، وقد أسهمت جملة من العوامل التي عملت على تدهور وضع المرأة الجزائرية ثقافيا، أهمها السياسة التربوية للاستعمار المفروضة على الجزائريين، مما جعل معظمهم يرفضون إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذا النوع من التعليم الذي كانت تشرف عليه بعض الحركات التبشيرية في الجزائر، والتي كانت تدس السم في العسل، - كما يقال - هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى تسلط العرف الاجتماعي، والعادات والتقاليد البالية التي سيطرت على العقول، وعزز هذا الموقف بعض المتشددین والمتزمتين من الفقهاء، والطرفيين الذين كانوا يرون حسب زعمهم، أنّ المرأة إذا ما تعلمت فسدت أخلاقها، وهذا يعتبر في نظرهم خروجاً عن الدين، وفي هذا السياق نجد شعراء إصلاحيين⁴ يوجهون أصابع الاتهام إلى هؤلاء الذين يدعون العلم - وباسم الدين - هم الذين كانوا السبب في جهل المرأة الجزائرية ردحا من الزمن، فهذا الشاعر محمد الصالح خبشاش حين ثار على تخلف المرأة الجزائرية وجهلها، هاجم رجال الطريقة واعتبرهم السبب في تخلفها وتأخرها وحاجتهم مستكبرا ومتسائلا: هل الشريعة منعت المرأة من التعليم كما - يزعمون - ويدعون ويطالبهم الإتيان بالبرهان، والدليل القاطع إن كان ما يدعونه صحيحا، وهذا في قوله متهمكما ساخرا:

1 - المصدر نفسه .

2 - مطلع قصيدة حافظ إبراهيم الشهيرة:

من لي بتربية النساء فإنها * في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها * أعددت شعبا طيب الأعراق

3 - أحمد بن عبد الرحمان الشاذلي، «أيا شاعر الاحساس» جريدة النجاح العدد 996، (4 أوت 1939).

4 - نلاحظ هذا الهدف التربوي في الأناشيد المدرسية لدى الشاعر العربي الذي درس على يد ابن باديس "محمد العابد الجيلالي" من خلال "نشيد الفتاة"، ونشيد افتتاح المدرسة للبنات، الأناشيد المدرسية لأبناء وبنات المدارس الجزائرية، المطبعة التونسية 1939، ص 6، وص 8، وص 13. وهناك نشيد وطني آخر يدعو فيه الشاعر "أحمد بن الأكل" ، لتعليم الفتاة في جريدة النجاح العدد 1246 (18 ديسمبر 1931).

ولقد رأيت جماعة تعزى إلى * * * نهج الهدى و الملة السحاء
قد أوعدوا و تجهموا و تهددوا * * * من حل قيد حليفة الأرزاء
إني لأعتقد أن عقولهم * * * ممزوجة بمجمّدات السماء
فهل الشريعة حرّمت تعليمها * * * يانخبة الأشياخ (و الصلحاء)
إن كل ذاك فبيدوا بحقائق * * * قطيعة ليماط كل رداء¹

بالإضافة إلى خبشاش الذي هاجم الطريقين، وأعتبرهم سببا في جهل المرأة الجزائرية، نجد شاعرا عرف بنزعه الوجدانية، لكنه في قصيدته «بنت الجزائر» نجده يبكي حال الفتاة الجزائرية لما تقاسيه من عناء وشقاء في الحياة، وهذا بأسلوب رومانسي، يستعير الشاعر من الطبيعة صبورا لكائناتها ليشخص ويشبه بها الفتاة الجزائرية، هذه الصور التي تجسد موقف الشاعر الوجداني إزاء كائن ضعيف يعاني قساوة الحياة، وقد استعار صبورا مثل الطير، والدرة، البدر، والنجوم، لينقل لنا إحساسه هذا بأسلوب فيه عناصر التصوير والإيحاء على غير عادة شعراء الإصلاح، وهذا في قوله وهو يخاطب «بنت الجزائر»:

أنا أبكيك دموعا و دماء * * * كم تقاسين أيا بنت الشقاء
ذقت ذلا، و هوانا و أسى * * * و ارتديت الحسن رغما و البهاء
كنت مثل الطير إن شاء أقام * * * مكوثا أو هوى شق الهواء

إلى أن يقول:

أرأيت البدر ليلا إن بدا * * * و هو في الأفق على الكون أضاء
و نجوما مرسلات دورها * * * لامعات تقتفي البدر اقتفاء
هكذا كنت و هل أنت كذا * * * يوم لا ؟ فالأمر مرقد خال وباء²

ثم بعد هذا الوصف لهذه الفتاة وما كانت تتمتع به وما صارت إليه، يقف الشاعر الطاهر بوشوشي على السبب الذي أدى بالبنت الجزائرية إلى الدرك الأسفل، إذ يخاطبها في تقريرية واضحة – هذه المرة – متّهما "الأولياء" أي الطريقين الذين كانوا السبب – في نظر الشاعر – وراء جهلها إذ يقول:

1 - د. عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، دار الحداثة مع ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر ط: 1، 1982، ص84

2 - أحمد معاش الباتني «من ويلاتنا» جريدة البصائر العدد 225 (10 أفريل 1953) ص 5

لا تلومي الدين و الآباء بل * * * فلتلومي من حسبنا «أولياء»
فهم قد أغضبوا الله بما * * * فعلوا إذ زرعوا في الشعب داء
فأعيدي مجدك الغابر * * * لا تيأسي لا ترفضني عنك الرجاء
وأقمي الطهر حدا مانعا * * * ومع الأبناء فلتعلي البناء¹

نلاحظ أنّ الشاعر في آخر القصيدة يدعو «البنات الجزائرية» أن تعيد مجدها وأن لا تيأس لتحقيق ذلك ويدعوها لبناء الوطن مع إخوانها، مع المحافظة دائما على طهرها وأخلاقها، ولا يخفي ما تنطوي عليه هذه الدعوة التي دعت لتعليم المرأة من خلال أقوال شعراء الجمعية ومفكراتها من الثورة على دعاة التحجر، والتزمت من رجال الطريقة، كما أنها دعوة صريحة لتعليم البنات الجزائرية، ونجد الشاعر محمد الهادي السنوسي الزاهري في قصيدة «ملاجئ الأطفال» يشاطر «بوشوشي» الرأي في رثاء البنات الجزائرية فهو يشبهها «بالزهرة الذابلة» نظرا إلى الإهمال الذي تعاني منه فهو يرثي لحالتها، ويدعو المجتمع أن يعير لها الاهتمام اللازم حتى تخرج من الشقاء إلى دنيا السعادة وهذا من خلال أسلوب مؤثر يرثي فيه وضعية فتيات جزائريات في ملجأ إذ يقول:

زهرة لم تكن لتذبل لولا * * * ما أصيبت من الإهمال
زهرتي هاته هي البنات لا كان * * * أمرو بالبنات غير مبال
بنات هذي الجزائر اليوم أرثيها * * * بشعري و مدمعي الهطال
إنها لم تزل على الجهل ملقاة * * * ومن عيشها لقي أوجال
في جمود كأنها صخرة الطود * * * وفي شقوة من الجهال
أيها القوم نظرت للبنيات * * * كما ينظر الرحيم الوالي²

وبعد هذا الوصف بل وهذا الرثاء لحالة البنات الجزائرية المتدهورة اجتماعيا، وثقافيا، نجد الشاعر محمد العيد في كثير من القاصائد خاصة في الثلاثينيات يخاطب العلماء وهم – قادة الأمة – في قصيدته «ويخلد الإسلام» داعيا إياهم إلى تشجيع تعليم المرأة والبنات خاصة، وليس هذا فحسب، بل إنه في قصيدته ذات

1 - تنتظر جريدة البصائر و على سبيل المثال نجد مقالا بعنوان «ما هو مآل البنات المسلمة و ما نصيبها من التعليم ؟ لأبي نعاس ممد في العدد 350 (20 جانفي 1956) ، و قصيدة الباتني تمثل نموذجا للخمسينيات في البصائر .

2 - مجلة الشهاب ، ابن باديس ، الرجل المسلم الجزائري ، ج 10 ، م 5 ، (نوفمبر 1929) ص 10 .

الأسلوب الانشائي يؤكد بأمر رجال التعليم بتلقينها جملة من الأسس التربوية، والأخلاقية التي ستساعدها في المستقبل على تكوين أسرة ناجحة، تصونها من الزلل و الإنحراف وهذا في قوله:

علموا البنات ما به تحصن النفس * * * لينكف عن أذاها اللئام
علموها كيف النظام و كيف السعي * * * في بيتها و طيف القيام
علموها كيف الرعاية للطفل * * * و كيف التلقين و الإلهام
علموها كيف التودد للزوج * * * و كيف التقدير و الإعظام
علموها كيف الوقاية مما * * * هاجمها بشره الأيام
علموا المرأة الحقائق في الدين * * * فقد طوّحت بها الأوهام

ويلاحظ أنّ هذا النوع من التعليم الذي حدّده الشاعر محمد العيد للمرأة المسلمة الجزائرية، لا يخرج من دائرة ورؤية ابن باديس التعليمية للمرأة الجزائرية، فهو الذي حدد هذا المنهج الذي سطر لتعليم البنات الجزائرية في مدارس الجمعية مجانا وهذا تشجيعا لها وتذليلا للعقبات التي ستواجهها وهو تعليم مبني على أساس ديني، و وطني، وقومي فعلي حد تعبير «ابن باديس» يجب تعليم البنات تعليما يناسب خلقتهن ودينهن، وقوميتهن.

والسبب في هذا التحديد حسب فلسفة ابن باديس، وجماعته في تعليم البنات، يرجع أيضا إلى تحديد نوعية الأجيال الذين سيحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، وهذا ما أكدّه الشاعر «أحمد بن عبد الرحمان الشاذلي» في قصيدته «أيا شاعر الإحساس»، يؤكد من خلالها على دور الأم في بناء مستقبل الأمة لذا يجب العناية بها، والملاحظ أنّ هذه المعاني والصور لا تخرج عن إطار معاني قصيدة حافظ إبراهيم الشهيرة في قضية تربية الأم فهي المدرسة الأولى لإعداد الأجيال القادمة فهذا في قصيدة الشاعر الشاذلي إذ يقول:

ولا غرو أنّ الأم مدرسة وقد * * * ينال بها الأبناء خير مقام
فإن وضعت ثدي المعارف أنجبت * * * و إلا فكل سائر في ظلام!!
فلا هي أفلحت ولا نسلها * * * ضروبا من الخيرات عند احتكام

لذا وجب التعليم للبنات حسبما * * * حكاه الرسول خير إمام

ألا علموا البنات العزيزة إنها * * * كغصن رطيب قابل لقوام

ينل شعبنا عزا و يحظ شبابنا * * * برتبة أبطال فحول فخام

إلى جانب تأكيد شعراء الإصلاح في قصائد مختلفة، وعبر أناشيد تربوية وضعت خصيصا لهدف مقصود وهو تربية البنات على أخلاق فاضلة، وإعدادها إعدادا كاملا يؤهلها لتكون أمّا ناجحة لمستقبل الوطن و الأمة، وتأكيدهم على عواز جهل المرأة وتأثيراته على كافة شؤون الحياة، هذه الآثار السلبية للجهل التي تؤثر عليها بالدرجة الأولى مثل لجوء الشباب إلى التزوُّج بالأجنبيات، وهذا قد أشار إليه البشير الإبراهيمي في أرجوزته بقوله:

صبية تأمن بوائق الضرر * * * و أعلم بأن نشأنا إذا كبر

ماف الزواج بابنة العم الأغر * * * يهجرها بعد غد فيمن هجر

لأنها في رأيه مثل الحجر * * * و يصطفي قريدة من الغجر

لأنها قارئة مثل البشر * * * خذه إليك درة من الدر

كما يؤثر جهل المرأة أيضا على تطور الأسرة، والأطفال والمجتمع ككل، ويؤدي بهم جميعا إلى التخلف وهذا ما يؤكده الشاعر «أحمد معاش الباتني» في قصيدته «من ويلاتنا» إذ لا يرى مناصا لتحقيق أي تقدم للبلاد، ما دامت المرأة مقيدة بأصفاد الجهل ويصرّح بذلك في تقريرية واضحة إذ يقول:

لن نبليغ الأهداف رغم عنائنا * * * ما دام في الأغلال جهد نساننا

منهنّ قوة نشئنا و رجائنا * * * و مناط عزتنا و صرح بنائنا

و بدونهن سيستحيل حرابا

ولهذا يدعوها إلى طلب العلم مع أخيها الرجل، مع المحافظة على الآداب والأخلاق إذ يقول :

فلتسعى حذو شقيقها نحو العلى * * * بنبات "خولة" يعرب فخر الملا

ولتعش للعلم المقوم معقلا * * * تجني معلوفه وترم المنجلا

ولتحرس الأخلاق والآداب

وهكذا نلاحظ ومن خلال النصوص الشعرية وإلى غاية الخمسينات أن رجال الإصلاح شعراء، وكتابا ظلوا يلحون على الدعوة إلى تعليم المرأة الجزائرية وتنقيفها، وهذا في أسلوب خطابي قريب في كثير من الأحيان من أسلوب الخطبة منه إلى أسلوب روح الشعر، ذلك أنّ الفكرة ظلّت صعبة التنفيذ لدى الكثير من أفراد المجتمع، إذ أن المشكلة لم تكن تخص المرأة وحدها، ولكن الرجل أيضا. فالجهل كان ظاهرة اجتماعية متفشية في المجتمع، له أسبابه، وعوامله الموضوعية تحت الحكم الإستعماري الجائر الذي فرض سياسة التجهيل على الرجل والمرأة على حد سواء، وقد حاول شعراء الإصلاح معالجة هذه الظاهرة، وتبيين آثارها السلبية على المجتمع، وإعطاء بعض الحلول لها للخروج من دائرة التخلف والجهل، وهذا بالدعوة إلى تعليم المرأة، وبناء المدارس بأكثر توسّع، وتبيين فوائد ذلك على المدى البعيد لمستقبل هذه الأمة، وقد حرص الشعراء - كما لا حطنا - في دعوتهم إلى تعليم البنات دائما على وجوب المحافظة على الأخلاق والآداب الإسلامية، هذا بالإضافة إلى ارتباط فكرة الدعوة إلى تعليم المرأة لفكرة المحافظة على الحجاب الذي لا يعد عائقا أمام تقدم المرأة، وقد عبّر عن هذه الفكرة الإمام عبد الحميد بن باديس بقوله: «إذا أردتم إصلاحها الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فأنّ حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها...».

تلك بعض مواقف الجمعية الإصلاحية وجهودها في سبيل تعليم المرأة والنهوض بها.

